حالة المغرب العربي

د. محمد برادة

د. عبد القادر الشاوي

(المغرب)

* منطلق:

يكتسي الحديث عن وضعية الدوريات الثقافية العربية راهناً وعن آفاق المستقبل الممكنة، أهمية كبيرة في سياق الثقافة العربية وغمرة التحولات المتسارعة التي تعرفها حالياً المجتمعات العربية والكونية.

وأهمية هذا الوضع بالنسبة لنا، تتجلى قبل كل شيء، في التسيّب الذي يطبع الحقل الإعلامي والثقافي «الجماهيري» من خلال التلفزة والإذاعة والفيديو والسينما... إن هذه الوسائل الثقافية المستقوية بفعالية التكنولوجيا وسرعتها، وبالحضور الكلي الذي وفرته لها الصناعة الثقافية، تعمل على إماتة الحس الانتقادي لدَى المتلقي وتعوده على السهولة والتعاطي السلبي مع ما يقدم له في مجال المتعة والتثقيف.

لذلك فإن طرح مسألة المجلات الثقافية وإعادة التفكير في دورها المستقبلي هو في العمق، استحضار لدور الثقافة الجادة القادرة على تقوية الحس النقدي واستثارة روح المقاومة لدى المتلقي حتى يظل عنصراً مؤثراً في صياغة الإشكاليات الثقافية.

ومن النافل القول بأن مشكلات الدوريات الثقافية العربية هي في معظمها مشكلات مشتركة بالرغم من وجود فروق في التواريخ والسياقات المواكبة لتجارب وعطاءات تلك الدوريات، إلا أننا اليوم - وبحكم التبدلات السريعة والتحديات التي تواجه مجموع الثقافة العربية - مطالبون بأن نعيد النظر شمولياً في دور وسائل التثقيف النخبوية والجماهيرية، وفي الإمكانات التي يمكن أن تتوفر عليها المجلة مستقبلاً، بوصفها أداة تفكير وبلورة لمجموعة من القيم والممارسات الثقافية.

وفي هذه الدراسة التي نقدمها عن تجربة الدوريات الثقافية العربية في أقطار المغرب العربي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب) نتوخى الإسهام في تحديد إشكالية المجلة الثقافية بالوطن العربي إنطلاقاً من تحليل المستويات الثلاثة الآتية:

١ - التذكير بالمكونات السياسية والاجتماعية والفكرية التي رافقت نشوء المجلات الثقافية البارزة في بلدان المغرب العربي.

٢ - تقديم الوضع الراهن للدوريات المغربية استناداً إلى تحليل نماذج من بعض المجلات المؤثرة، سواء من حيث الشكل أو نوعية الإشكالية الثقافية التي تسهم كل مجلة في صياغتها.

٣ - التساؤل عن آفاق المستقبل من خلال إعادة تحديد وظيفة الدورية الثقافية بترابط مع أسئلة الثقافة العربية وتطلعاتها المستقبلية.

أولاً - المجلة الثقافية المغربية: خلفية تاريخية

لم تتبلور الحركات الوطنية التحريرية المنظمة في المغرب العربي إلا في أوائل العقد الثالث من هذا القرن، ولم يكن بمقدور مشاريعها الثقافية النهضوية أن تتحدد، كاختيار يرمي إلى «النهوض بالأمة» كما كان يحلو لعلال الفاسي أن يقول، إلا في سياقها وسياق الوضع العام المرتبط بها.

فقد عمد الاستعمار الفرنسي في الجزائر أولاً ثم في تونس والمغرب بعد ذلك (كما كان الشأن بالنسبة للاستعمار الإيطالي في ليبيا) إلى

تركيز وجوده المادي والمعنوي بما استحدثه من بنى وما أقامه من قواعد، وسعى في مختلف مراحل وجوده في تلك الأقطار إلى محو الشخصية القومية بمختلف أساليب المحو (التبشير المسيحي، التعليم، الثقافة، . . . إلخ). ومن الأمور الثابتة في هذه الأقطار أن رد الفعل الوطني العام، الذي مهدت له فئات اجتماعية مختلفة تضررت من الوجود الاستعماري مثلما شكّل، فيما بعد، مناخاً لبروز الحركات التحريرية، راهن منذ البدء على استنهاض الهمم وتوجيه الرأي العام ـ في المعارضة كما في التوجيه ـ ووجوب حماية الشخصية القومية وتوفير أسباب تطويرها على جميع المستويات. ولذلك توجه الاهتمام، منذ البدء، إلى ما يمكن أن تقوم به الصحافة من أدوار، رغم أن التشريعات المنظمة لهذا النشاط الإعلامي كانت تحد من طموح العمل الوطني على هذا الصعيد. ومع ذلك فقد ظهرت صحف مختلفة على صعيد المغرب العربي ترجمت نزوع الوطنيين المغاربة إلى استغلال المجال الإعلامي وتوجيهه وفق مقتضيات العمل في سبيل تعميم الوعي بخطر الاندثار والتلاشي، كما في سبيل تحسيس القراء ومجموع المتابعين لهذا اللون من الممارسة لواقع الظاهرة الاستعمارية.

على أن الاهتمام بتكوين الصحف، وخصوصاً في المراكز الحضرية الأساسية، ترافق بالاهتمام نفسه الداعي إلى تنظيم قواعد العمل الأخرى (الاجتماعي، الاقتصادي، السياسي) مع إنشاء المجلات الثقافية والفكرية. وهو ما ظهر في تونس في أواسط العقد الثاني من هذا القرن عندما أسس محمد باشا في جنيف عام ١٩١٦ مجلة أسبوعيّة (باللغة الفرنسية) سمّاها **مجلّة المغرب** وقد كافحت هذه المجلّة مدّة عامين مكافحة عظيمة، ثم توقّفت بعد انقطاع المدد الذي كان يأتيها من «اسطنبول»[1]، وفي المغرب أيضاً ولو بطريقة سرية في البداية، كما يذكر علال الفاسي[2] بإنشاء مجلة تدعى **أم البنين** «كانت تصدر بانتظام في أربعين صفحة» قبل بداية الثلاثينات[3].

والواقع أن المجلات التي صَدَرَتْ في الأقطار المغربية منذ الربع الأول من هذا القرن، سواء أكانت بمبادرات فردية أو بتوجيه مركزي جاءت كاختبار ضروري للتعبير عن تطلع ثقافي كان يراود الوطنيين الأوَل ويدفعهم إلى المغامرة في حقلي المعارضة والتوجيه، وفي معظم الأحيان بإمكانيات محدودة ومتواضعة، اعتباراً لما تمليه ظروف الأوضاع السائدة من حولهم على مستوى المهام والمتطلبات.

ولذلك اشتركت تلك المجلات في التعبير عن موضوعات أساسية كانت تشغل بال الوطنيين وعموم الموظفين، ونعني بذلك بعث الدين الإسلامي من خلال نقد التخلف الذي ران على معتنقيه بسبب التحجر وشيوع «الطرقية» وتنفذ «الزوايا» (وكانت الجامعات العلمية كـ «الزيتونة» في تونس و«القرويين» في فاس بالمغرب بالإضافة إلى «رابطة علماء الجزائر». . تقوم بنفس الدور بطرق أخرى) وبالتأكيد ـ على المستوى نفسه ـ على العروبة وإحياء اللغة العربية فضلاً عن إبراز الشخصية الوطنية المستقلة على المستوى الثقافي والفكري بعامة.

على أن هذه المجلات كانت تعاني، بسبب ظروف الحصار المفروض عليها، من شتى المضايقات (كالمصادرة والرقابة الدائمة) وهو ما كان يضطرها إلى الهجرة (جنيف، فرنسا) أو يحملها على التوقف أو يجعلهافي جميع الأحوال، تحت رحمة السلطة الحاكمة.

وما أن رحل الاستعمار الأجنبي حتى تغيرت الأوضاع بتحقيق الاستقلالات الوطنية في أوائل الخمسينات، واستوت في معظم الأقطار المغربية، سلط كافحت طويلاً من أجل التحرير والإصلاح بمختلف وسائل الكفاح (الدبلوماسية، المقاومة. . .) مع أن الجزائر بقيت بعد ذلك لوقت أطول بحكم الوضع الذي رسخه الاستعمار الفرنسي فيها منذ الاحتلال عام ١٨٣٠، غير أن التطور المتفاوت في الأقطار المغربية، مع ذلك، جعل التحولات التي أعقبت الاستقلالات تختلف من قطر إلى آخر. ويبدو أن الأوضاع في المغرب وتونس بشكل خاص كانت أكثر من غيرها في الأقطار الأخرى قابلية للتفاعل. ويعود ذلك ـ من جهة ـ إلى قوة الحركة الوطنية فيهما ونضج التفاعلات الاجتماعية وكذا إلى المستجدات التي ظهرت في الوضع الجديد، سواء في سبيل بناء الاستقلال بما يتطلبه ذلك من جلاء القوات الأجنبية وإقامة الإدارة الوطنية وتنظيم الاقتصاد على أساس المصلحة الوطنية العليا، أو فيما يرجع أيضاً للصراعات الاجتماعية التي أفرزتها المرحلة، وكانت مُعبّرة على تناقضات كامنة، منذ أمدٍ في أبنية المجتمع وفي نسيجه العام.

وقد تبلورت هذه المستويات جميعاً بصور متنوعة على كثير من الأصعدة، وكان المجال الثقافي، بشكل خاص من المجالات التي أكسبها بروزاً خاصاً، لأنه مجال التعبير عن المواقف والآراء والتناقضات.

وقد عرفت بعض الأقطار المغاربية، منذ السنوات الأولى للاستقلال مظاهر شتى لتنافس القوى على استغلال المجال الثقافي بإصدار الجرائد أو المجلات الجديدة، وساعدها في ذلك أن الشخصية الوطنية تفتحت على عهد جديد، وأخذت بالمثل ترنو إلى أفق التطور، بما يفتحه في وجهها من سبل وإمكانيات، ولعل الأمر اللافت في هذا التطور هو ظهور أشكال مستجدة للعمل الجماعي (الاجتماعي والثقافي. . .) سواء كان ذلك فى ارتباط بالسلطة القائمة أو في استقلال تام عنها.

ويعزى ظهور بعض المجلات الثقافية والأدبية في هذه الفترة المبكرة لهذا النمط من العمل التكتلي (اتحادات للكتاب والأدباء، جمعيات ثقافية ومهنية، وزارة الثقافة. . .).

---

(١) انظر: علال الفاسي: **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**، نشر وتوزيع عبد السلام جسوس، بدون تاريخ ص: ٤٧ وما بعدها.

(٢) نفسه، ص: ١٣٩.

(٣) يمكن الإشارة أيضاً إلى مجلات: **الشهاب** للشيخ ابن باديس، **والبصائر والأقدام** للأمير خالد بن عبد القادر، **وتقويم المنصور** لتوفيق المدني. . .

وخلافاً للمراحل السابقة، فقد تبين أن العمل الثقافي لم يعد مقروناً، على الأقل على نحو ظاهر أوحَادّ، بإثبات مكونات الهوية أو التأكيد على اللغة الوطنية أو بعث الشخصية القومية بل بتأسيس خطاب مغاير، له مقوماته الخاصة النابعة من طبيعة المرحلة التي يتعامل معها وينفعل بها. ولهذا ظهرت في هذه الفترة عدّة مجلّات تعبر عن هذا المنحى، ثم تواصلَ ذلك، بوضوح أكبر بحسب المتغيرات التي طبعت الوضع وتعقّد مهامه ومتطلبات الفعل فيه.

ثانياً ـ الوضع الراهن للدوريات المغاربية:

شهدت الأقطار المغاربية منذ منتصف الستينات تطورات هامة على مختلف الأصعدة، وربما كان التعليم من القضايا العامة التي حظيت بعناية السلطة القائمة، تعميماً وتعريباً، لارتباطه بالتطلعات الشعبية الرئيسة وللشروط التي أحيط بها في الفترة الاستعمارية. وبتوسع هذا المجال اكتست الثقافة طابعاً جديداً لأنه ساهم في تخريج أفواج جديدة من المتعلمين، كما فرض اختبارات لم يسبق لها أن ظهرت في ساحة الثقافة من قبل، وكان من الطبيعي أن تلعب المجلات في هذا الإطار، دور المؤطر. ولذلك فقد كانت أغلب المجلات الصادرة في هذه المرحلة مرتبطة بقيم أو توجهات أدبية وثقافية، أو تعتمد على رؤى ومواقف إيديولوجية وسياسية. هذا فضلاً عن ظهور مجلات أوقفت نشاطها الثقافي على فئات معينة من الكتاب والقراء، أو اهتمت اهتماماً خاصاً بأجناس أدبية محددة (**دعوة الحق، آفاق، أقلام، أنفاس، القصة والمسرح، والأهداف، في المغرب. آمال، الأصالة في الجزائر فكر، قصص في تونس..** إلخ) على أن معظم هذه المبادرات استنفذت مشروعاتها في فترات قصيرة، فتوقفت عن الصدور لأسباب مختلفة أو منعت بقرار إداري أوواصلت مسيرتها بتعثر. ولعل التجربة المغربية ظاهرة أكثر من غيرهاعلى هذا الصعيد، فقد ظهرت منذ بداية السبعينات أو على فترات مختلفة بعد ذلك، مجلات كثيرة متنوعة وبعضها انتظم طويلاً في الصدور (**أقلام، الثقافة، الجسور، الزمان المغربي، البديل، المشروع..**) وبلورت على امتداد يزيد عن عقد ونصف من الزمن حركة ثقافية نشيطة، وكانت في غالبيتها تصدر إما بمبادرات فردية أو بدعم من هيئات ثقافية وسياسية أو حكومية أو علمية. غير أن بعضها تعرض للمنع بقرار إداري والبعض الآخر توقف أو استمر متعثراً في الصدور وقد تمتعت تونس بوضعية أكثر انفتاحاً فضلاً عن وجود كثير من المجلات ذات الطابع المتخصص تصدر عن بعض المنظمات أو بمساعدة بعض الوزارات أو عن الجامعة (**المجلة العربية للتربية، دراسات دولية، شئون عربية، فنون، المجلة العربية للبحوث التربوية، المجلّة المغربية للتوثيق، الحياة الثقافية، حوليات الجامعة التونسية بتونس، مجتمع وعمران، المجلة التاريخية المغربية، مجلة الشعر... إلخ**). وقد عرف وضع المجلات الثقافية المسار نفسه في الجزائر وليبيا، لأن معظم المجلات الصادرة في هذين البلدين ترتبط، بجهات حكومية (وزارة الثقافة كما في الجزائر، شعبة الثقافة والإعلام كما في ليبيا...) من ذلك مثلاً **المواجهة الشاملة، التراث الشعبي، الفصول الأربعة، الثقافة العربية** (في ليبيا) **وآمال، الأصالة، اللسانيات، بانوراما العلوم الاجتماعية، المجلة الجزائرية للعلوم القانونية، مجلة التاريخ والحضارة، الثقافة،** (في الجزائر) مع الإشارة بصورة خاصة إلى أن التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي برزت في الجزائر في أواخر عام ١٩٨٨ قد فتحت عهداً جديداً لتبلور كثير من المشاريع الثقافية التي كانت من قبل مدمجة أو مندمجة في إطار محدد (وزارة الثقافة، جبهة التحرير...) أو مكبوتة بصورة من الصور.

ويمكن أن نسجل في هذا السياق صدور دورية جديدة (**التبيين**) تعبر عن طموح مستقل في إنجاز مشروع ثقافي يرتبط بالتحولات المذكورة.

ويمكن إدراج مختلف المجلات الصادرة في الأقطار المغربية في أربع خانات:

(أ) المجلات المتخصصة، وهي تصدر إمّا بدعم حكومي أو عن هيئة علمية.

(ب) المجلّات الثقافية العامّة، وهي تصدر في معظمها عن وزارة الثقافة في أكثر من قطر مغربي (ليبيا، تونس، الجزائر) على أن هناك مجلات من هذا النوع تصدر بمبادرات خاصة أيضاً (المغرب مثلاً).

(جـ) المجلات الأدبية، وهي في معظمها تصدر عن اتحادات أدبية أو مهنية أو عن مجموعات ثقافية.

(د) وهناك أيضاً ما يمكن تسميته بالمجلة «الكشكول» التي لا تتقيد في الغالب بتوجه خاص يحدد برنامجها أو يكشف عن مشروعها.

ومن الطبيعي أن ننظر إلى هذا التصنيف في ضوء الشروط الخاصة به في كل قطر مغربي، اعتباراً للمستويات الأخرى التي تحيط به ويمكن أن نذكر منها أهمها:

١ ـ إن قسماً كبيراً من المجلات المتخصصة يصدر في واقع الأمر على فترات متباعدة، بحكم أن إنتاج المعرفة الثقافية والفكرية وإعدادها للصدور في دورية تخاطب قطاعاً مخصوصاً من الرأي العام الثقافي، يرتبط ـ من جهة ـ بطبيعة الحقول التي تعمل فيها الدورية، وهي في الغالب حقول ذات تخصصات معرفية وثقافية تفرض على الباحثين جهداً مضاعفاً في ميدان البحث والتقصي، كما ترتبط ـ من جهة أخرى ـ بما يمكن تسميته باستراتيجية البحث العلمي في ميدان التخصص نفسه.

ولا يهتم هذا النوع من المجلات بالأمور الثقافية المباشرة كما

أن مساهماتها في الحقل الثقافي مطبوع بالأكاديمية. وهو ما يجعل أغلبها تصدر مرة واحدة على مدار السنة أو مرتين في أحسن الأحوال، وأقلها تلك التي تصدر بأعداد أكبر.

٢ ـ أما المجلات الثقافية العامة، فبحكم ارتباطها بالسياق التجاري تميل غالباً إلى الصدور بانتظام وفي فترات متقاربة، وأغلب هذه المجلات شهرية أو فصلية في مختلف أقطار المغرب العربي، وتلعب لذلك أدواراً مختلفة في ساحة الثقافة الوطنية فضلاً عن أنها تستقطب أقلاماً كثيرة، وتهتم ـ فوق هذا وذاك ـ بتنظيم المجال الثقافي حسب الاختيارات التي تحددها لعملها. ولهذا النوع من المجلات في المغرب العربي ـ على قلته مع ذلك في السنوات الأخيرة ـ علاقة خاصة بالقراء، لأنها تتحول إلى أداة مؤطرة للعمل الثقافي العام، ومنبر للحوار والجدال، زيادة على انفتاحها على مختلف ميادين المعرفة الثقافية.

٣ ـ أما المجلات الأدبية فهي تصدر في الغالب عن اتحادات للكتاب والأدباء، وتخضع لوتيرة خاصة في الصدور، إلا حين يتوفر الدعم المادي الكافي، وتهتم هذه المجلات في الغالب بنشر الإبداع القصصي والشعري والمقالات أو الدراسات النقدية إلى جانب المتابعات الثقافية ومراجعة الكتب.

٤ ـ ولا تمثّل المجلاّت التي أسميناها بـ «الكشكول» أي دور حقيقي في النطاق الثقافي لأنها في معظم الأحوال تخاطب جمهوراً واسعاً بوسائل تميل إلى الترفيه والمتابعة السطحية، ويتوقف دور هذا النوع من المجلات على ما تقدمه لقرائها من مواد مبسطة قصد تعميم المعرفة بميادين معينة أو بموضوعات خاصة أو ما شابه ذلك. كما أن موضوعات هذه المجلات غالباً ما تجمع بين اهتمامات متنوعة (كالتحقيق الصحفي حول بعض القضايا الثقافية، مواد إبداعية، غناء، موسيقى، سينما...).

وسنعمد، بغية تقديم نظرة عامة على بعض هذه المجلات إلى تناول جملة من خصائصها تمهيداً لتحديد وضعها الراهن وآفاق تطورها.

* * *

هناك مجلات كثيرة تصلح موضوعاً للبحث والتعريف ولها، زيادةً على ذلك، حضورها الخاص والمتميز في الساحة الثقافية على الصعيد المغربي، ولعله من المتعذر بحكم طبيعة الموضوع أن نفرد لكل واحدة منها تعليقاً خاصاً يكشف عن تجربتها ويوضح برنامجها ومدى مساهمتها في مختلف حقول المعرفة، وسنكتفي في سبيل الإحاطة المجملة، بتقديم جرد عام لبعضها.

الفصول الأربعة (ليبيا):

هي مجلة فكرية تصدر مرّة كل ثلاثة أشهر عن رابطة الأدباء والكتّاب والفنّانين بالجماهيرية الليبية. وقد صدرت هذه المجلة عام ١٩٧٨. وهي تسعى في نطاق «الإيديولوجية الاشتراكية» التي سطّرها العقيد القذافي في **الكتاب الأخضر** إلى «تكوين مجتمع سعيد، لأنه حر، وهذا لا يتحقّق إلا بإشباع الحاجات المادية والمعنوية، وذلك بتحرير هذه الحاجات من سيطرة الغير وتحكّمه فيها».

وتقوم هذه المجلة بنشر الدراسات النقدية والإبداعات الأدبية (شعر، قصة، فصول من روايات، مسرح) كما تهتم بعرض الكتب، بالإضافة إلى موضوعات مرتبطة بتطور العُلوم والرسائل الثقافية والأنشطة العامة.

وتتميز هذه المجلة بانفتاحها على الأقطار المغربية الأخرى، وقد نشرت في أعداد مختلفة موضوعات لكتاب وأدباء من المغرب وتونس. ولعل ما يساعدها على ذلك أنها توزّع في الأقطار المغربية بصورة منتظمة، دون الحديث عن الإمكانيات المادية التي تسندها لأنها تصدر في الحقيقة، عن «المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان»، وهي مؤسسة ثقافية تابعة للدولة.

ولعل من إحدى الجوانب الأساسية في هذه المجلة اهتمامها بالمحاور الثقافية، لأن هذه المحاور غالباً ما تركز على قضايا ثقافية ذات بعد عربي، فتحيط بمختلف جوانبها دراسة وبحثاً كما تنشر المجلة بين الحين والآخر، ملفات قصصية وشعرية.

الثقافة العربية (ليبيا):

هي مجلة شهرية ثقافية عامة تتمتع بدعم حكومي وتصدر عن جهاز يهتم بالثقافة، وقد صدرت هذه المجلة لأول مرة عام ١٩٧٣، وهي تجمع بين الدراسات السياسية والاجتماعية والثقافية والتاريخية واللغوية، بالإضافة إلى مواد إبداعية (شعر، قصة) وأغلب موضوعات هذه المجلة ـ من زاوية هذا التنوع الدراسي ـ تهتم بقضايا الثقافة العربية (وهو الثابت في عنوانها) في مختلف أقطار الوطن العربي. وتجمع في مختلف ميادين اهتمامها بين الدراسات القديمة والحديثة، ومردّ ذلك إلى توجيه خاص (يعبّر عن نفسه في الافتتاحيات) يؤكّد على وجوب دراسة تاريخ الأمة العربية ومتابعة مختلف ميادين نشاطها الثقافي والفكري، مع التركيز على الأبعاد القومية المميزة لها.

ومع أن هذه المجلة تصدر في ليبيا إلا أنها توزع في الأقطار العربية الأخرى وقد ساعدها على ذلك أيضاً انتظام صدورها منذ ما يزيد عن عقد ونصف من الزمن، وتخاطب هذه المجلة على الأرجح فئات واسعة من القرّاء، لأن تركيزها على الجانب الثقافي في مختلف الدراسات التي تقدّمها يجعلها قريبة أكثر من اهتمامات القارىء المتوسط.

الحياة الثقافية (تونس)

هي مجلة ثقافية جامعة تصدرها وزارة الثقافة والإعلام بالجمهورية التونسية، أسّسها محمد السعدي سنة ١٩٧٦ وتوالى

صدورها منذ ذلك الوقت بانتظام أربع مرات في السنة. وتُسْنَد إدارة هذه المجلة عادة إلى الوزير المكلف بالثقافة في كل مرحلة، وهي تهتم بالدراسات الفكرية والأدبية، بالإضافة إلى إهتمامها بنشر الإبداع الأدبي شعراً وقصة إلى جانب المتابعات الثقافية، وغالباً ما تشتمل أعداد هذه المجلة على «فاتحة» تهتم برصد الأوضاع الثقافية في تونس وفي بعض البلدان العربية وهي لذلك تمثل توجيهاً «رسمياً» فيما يجب أن يكون عليه «التطور» الثقافي. من ذلك مثلاً ما تعلنه المجلة في أحد أعدادها «إننا مطالبون اليوم ثقافياً، بحماية المكاسب التي حققها المجتمع المدني الذي تهدده أطروحات سياسية وثقافية تريد جره إلى الوراء وتريد اغتيال كل طاقة إبداع. . . . وتَعْتَقِد أنّ مهمة صياغة البرنامج الديمقراطي لثقافتنا موكولة إلى المثقفين وأن الجلوس على الربوة موقف لاغ إن لم يكن موقفاً يَخُونُ صيرورة ثقافتنا وتحول مجتمعنا. .» (ع ٥٤/١٩٨٩ ص٣)

وتهتم هذه المجلة بالدراسات الأدبية الحديثة والقديمة مثلما تنشر دراسات لغوية ونقدية وتاريخية. . . إلخ. كما أن توجهها منفتح على الثقافة العربية الحديثة بعامة.

الباحث (تونس)

هي مجلة حديثة العهد نسبياً، وتصدر فيما يبدو بإمكانيات متواضعة، الأمر الذي ينعكس على حجمها (٢١ × ١٣) وعلى عدد صفحاتها (حوالي ٦٠ ص) وقد ظهرت في أواخر عام ١٩٨٠ وانطلق عملها الثقافي بالتركيز على وجوب تحرير القدرة الإبداعية عند الفنان» والعمل من أجل «انطلاق الإنسان العربي الجديد من خلال القضاء على «ظاهرة التحجر واستخدام اللغة بشكل يسمح بتحرير طاقات التعبير، دون الوقوع في العزف الجمالي المنفرد على اللغة. .» وهي تعرّف نفسها بكونها مجلة تجديدية، وتهتم بالشعر والقصة والأدب العالمي المترجم والدراسات الفكرية المختصرة، بالإضافة إلى حوارات مع المثقفين والمبدعين العرب (البياتي، إلياس خوري. . . إلخ).

دراسات دولية (تونس)

هي مجلة تصدر عن جمعية الدراسات الدولية ثلاث مرّات في السنة، وظهرت لأول مرة عام ١٩٧٩، وتقدم نفسها كمجلة متخصِّصة في القضايا السياسية الدولية والعربية، ولذلك تهتمّ بنشر موضوعات حول التطورات السياسية والتاريخية وقضايا حقوق الإنسان وبعض الدراسات الاقتصادية. وقد دأبت المجلة منذ صدورها على إثبات أبواب خاصة تقوم فيها بعرض مطالعات الكتب وتطور الأحداث إلى جانب قاموس تخصّصه لبعض المفاهيم أو القضايا الراهنة.

وجدير بالإشارة أن المجلة تنشر أيضاً دراسات باللغة الفرنسية، وهي ظاهرة مقصورة في غالب الأحيان على المجلات المتخصصة، ولكنها نابعة أيضاً من طابع الازدواجية اللغوية والثقافية المتمكن من النّخب الثقافية في المغرب العربي كما هو الشأن في بعض البلدان العربية الأخرى مع اللغة الإنجليزية مثلاً. . . .).

وقد حافظت هذه المجلة على انتظامها مع أن عدد صفحاتها يتجاوز في كل عدد ثلاثمائة. وهي تُوزع في الأقطار المغربية وتعد الآن من بين المراجع الهامة في متابعة بعض التطورات التي تحدث في المنطقة أو على الصعيد العربي. وهي تمتاز فوق هذا وذاك، بالعناية التي توليها لنشر الوثائق. ولعل ارتباطها بجمعية تهتم بالدراسات الدولية فيه ما يبرر هذا الاختيار.

الثقافة (الجزائر)

هي مجلة شهرية تصدر بالجزائر منذ مستهل عام ١٩٧٠ عن وزارة الإعلام والثقافة. ويمكن اعتبارها مجلة ثقافية عامة، تهتم بالمقالات الإجتماعية والتاريخية والأدبية إلى جانب الإبداع الشعري والنصوص السردية. وتركز هذه المجلة في الغالب على الإنتاج الجزائري، وهي تستقطب كُتّاباً من مختلف المشارب مع اهتمام خاص بالمشاهير منهم، وهو ما حدا بالوزارة الوصية على إصدارها إلى إنشاء مجلة أخرى آمال خُصصت أساساً للأقلام الشابة، وعلى صفحاتها برز منذ ذلك الوقت جيل من الكتاب الجزائريين في مختلف مجالات المعرفة والإبداع.

على أن ما يلفت النظر في هذه المجلة هو توجهها الخاص نحو إحياء وتنمية الثقافة العربية في الجزائر تنقيباً ودراسة. ويعود ذلك، فيما نحسب، للظروف التي أحاطت بتلك الثقافة في المرحلة الاستعمارية وللشعور بما لها من أدوار في صياغة الوجدان القومي بأدوات الصياغة النابعة من التراث واللغة والخصوصيات المحلية.

التبيين (الجزائر)

هي مجلة فصلية حديثة، صدر عددها الأول منذ شهور فقط (خريف ١٩٩٠) عن جمعية «الجاحظية» التي أنشأها منذ حوالي عام (١٩٨٩) نخبة من المثقفين الجزائريين في خضم الأحداث السياسية التي عرفتها الجزائر (أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٨) وما فجرته من صراعات ونقاشات أبانت عن واقع التوتر الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي ظل مكبوتاً في الجزائر فترة طويلة من الزمن.

وقد أعلنت المجلة عن طموح في بناء ثقافة وطنية متحرّرة من كل أشكال الهيمنة والتبعية. وهو ما ظهر في العدد الأول، بحيث نشرت أعمال الندوة العربية التي نظمتها جمعية «الجاحظية» حول الأدب والمسألة الوطنية، ويمكن اعتبار هذه المجلة لطابعها المستقل من التجارب الهامة في الجزائر.

كما أن المجلة تهتم بالإبداع الأدبي (قصة، شعر) وتنشر منه ما يتفق مع الطموح الذي عبرت عنه في مقدمة العدد الأول.

آفاق (المغرب)

هي مجلة اتحاد المغرب، وقد صدرت في بداية الستينات (١٩٦٣) وتعتبر من هذه الناحية من أقدم المجلّات الثقافية التي صدرت في

المغرب الحديث (ما بعد الاستقلال)، ويرجع أمر انتظامها النسبي، وهي فصليّة، طوال هذه المدة التي تجاوزت ربع قرن، إلى ارتباطها بهيئة ثقافية مركزية تجمع معظم الكتّاب المغاربة وتحرص على توفير إطار ثقافي لنشر إنتاجهم الأدبي والإبداعي. هذا فضلاً عن وجود قواعد تنظيمية تُلزم كل مكتب ينتخبه المؤتمر التابع للهيئة بمتابعة إصدار المجلة وتوفير الشروط المادية لاستمرارها. وقد مرت هذه المجلة، بمراحل مختلفة كانت تعكس في كل مرحلة طبيعة التوجه الذي يُسْبَغُ عليها من طرف المشرفين والمساهمين في إصدارها، ولكنها ظلت على الدوام منبراً لنشر الإنتاج المغربي وساهمت بدور كبير في إجلاء صورة أدب يواكب التحولات العامة في المغرب. فضلاً عن أنها تُمثّل صورة من صور هذا الأدب في الخارج.

وتهتم مجلة آفاق بنشر الدراسات الأدبية والمقالات النقدية والإبداع وقراءة الكتب ومحاورة المثقفين والمبدعين، يضاف إلى ذلك أنها واكبت أنشطة اتحاد كتّاب المغرب وعكست معظم الندوات الهامّة (مغربياً وعربياً) التي أعد لها وأنجزها بمفرده أو بالتعاون مع هيئات أخرى.

وتعتمد هذه المجلة، بحكم استقلالها الفكري والمادي على مواردها الخاصة (المبيعات) وما يصرفه الاتحاد من إمكانياته المحدُودة على نشرها وضمان استمرارها.

الثقافة الجديدة (المغرب)

صدر عددها الأول في آواخر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٧٤ إلى أن أوقِفَتْ بقرار إداري عام ١٩٨٤، ويمكن القول بأن هذه المجلة ظهرت في مرحلة مطبوعة بغليان اجتماعي وسياسي وغياب المنابر الثقافية الجادة الحاملة للمشروع المعبر عنه، فجاءت الثقافة الجديدة، على الأقل من خلال العنوان الذي اقترحته لميدان عملها، لكي تفعل في هذا الواقع، ولذلك تحولت بعد مدة إلى إطار خصب لتفاعل الآراء والاجتهادات.

وقد اهتمت هذه المجلة، على غرار مثيلاتها في الأقطار المغربية الاخرى، بنشر الدراسات الأدبية والفكرية والمقالات النقدية إلى جانب النصوص الإبداعية، ولكنها تميزت أيضاً بانفتاحها على كثير من الكتاب والمبدعين العرب ونشرت لبعضهم نصوصاً تتسم بالجدة، ثم أن المجلة تبنت في بعض مراحل تطورها فكرة «الحداثة» وحاولت التنظير لها أسوة ببعض زميلاتها من المجلات المشرقية (مواقف مثلاً..) ولكن الدعوة ظلّت نخبوية ولم تصادف ما كان يؤمله المشرفون عليها من تجارب بين القرّاء والمهتمّين، وخصوصاً عندما بدأت المجلّة تلحّ، وأحياناً بنزعة «تبشيرية» مكرورة، على وجوب الفصل القاطع بين الثقافي والسياسي، فابتعدت تدريجياً عن الاختيارات الأولية التي رصدتها لانطلاقها في البدء.

على أن الناظر في مجمل أعداد المجلة لا يستطيع الوقوف على مشروع واضح في «دائرة الثقافة الجديدة» سعت إلى بلورته طوال مدة صدورها (١٩٧٤ ـ ١٩٨٤) إلا ما كان من بعض الدعوات التي تتسرب بين الوقت والآخر إلى صدر افتتاحياتها دون أن يكون لذلك أي أثر في أختيار موادها أو اقتراح محاور عملها.

المشروع (المغربي)

أصدرتها لجنة الثقافة والإعلام التابعة للاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية في سنة ١٩٨٠، وتضم هيئة التحرير أسماء كتّاب وباحثين معروفين من أمثال الحبيب المالكي، محمد برادة، خالد عليوة، محمد الأشعري... والاهتمام الأساسي لهذه المجلة ينصب على تحليل الفكر السياسي المغربي والعربي ودراسة الجوانب الاجتماعية والإيديولوجية والثقافية. ومن هذه الزاوية فان المشروع تَتَبنّ هدف الإسهام في الفكر السائد وبلورة مجموعة قيم تُكوّن أفق التغيير، بالنسبة للقوى التقدمية بالمغرب. إنها بتعبير آخر محاولة لصياغة مشروع مجتمعي جديد يتطلع إليه حزب الاتحاد الاشتراكي ويقترحه بديلاً عن الأزمة التي يتخبط فيها المغرب منذ الاستقلال. من ثم تبرز الروح الانتقادية بقوة وأحياناً تطفو النغمة التبشيرية أو الطوبوية على المقالات.

لقد صدر من المشروع حتى الآن أحد عشر عدداً، مع توقف دام حوالي أربع سنوات (من ١٩٨١ إلى ١٩٨٦). ولذلك فإنها لا تحافظ على إنتظامها في الصدور.

تتفرع موادها الأساسية إلى الأبواب التالية:

(أ) افتتاحية لها علاقة بمحتويات العدد أو بإحدى القضايا المطروحة في الساحة السياسية أو الثقافية مثل دور الثقافة في التغيير أو تحليل أهمية الانتفاضة الفلسطينية.

(ب) دراسات أو ملف يتناول بالتحليل قضية حيوية تشكل جزءاً من هموم المجتمع المغربي أو العربي، مثل: إصلاح التعليم، مشكلات الشباب، تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر، ملف عن سبتة ومليلة، ملف عن الانتفاضة...

(ج) حوار العدد: تقدم فيه إحدى الشخصيات البارزة في عالم الفكر السياسي والأكاديمي، مثل: سمير أمين، الدكتور محسن مهدي، المستشار كرايسكي...

(د) الملف الأدبي: يشمل على نصوص إبداعية ومقالات نقدية.

(هـ) متابعات: عروض لبعض الكتب السياسية والأدبية.

(و) وثائق: تنشر نصوصاً لها في تاريخ الحزب أو الفكر السياسي المغربي.

يمكن إدراج مجلة المشروع ضمن تقاليد الفكر الاشتراكي في أوروبا، وهي التقاليد التي كانت تسعى إلى ربط الأحزاب بالحركة الثقافية والفكرية وتوطيد علائق المناضلين بالتحليل الموضوعي والمعطيات المعرفية. وعلى هذه المشكلة لا تكون هناك هوة فاصلة بين السياسي والثقافي.

وما يهمنا من المشروع حسب سياق دراستنا، هو إبراز مساهمتها

في صوغ الإشكالية الثقافية بالمغرب وبلورة بعض القيم الجديدة. ومن هذا المنظور، نسجل لـ **المشروع** إلحاحها منذ وقت مبكر على ربط الاشتراكية بالديمقراطية لتستجيب لمكونات المجتمع المغربي ولإفساح المجال أمام مختلف العطاءات بعيداً عن الفرض والقسرية.

لكن نجد في المجلة تأكيداً على أن الثقافة ضرورية لكل تغيير عميق، بوصفها عاملاً حاسماً في بلورة الوعي وتحويل العلائق. ومن ثم، فإن الثقافة ـ مهما استوعبت دروس الماضي وعطاءات التُراث ـ فإن مسؤوليتها الأساسية، هي مساءلة المستقبل والتهيىء له. وهذا ما نلاحظ وجوده ضمن الإسهامات الثقافية الصادرة عن قوى تنتمي إلى المجتمع المدني وتضطلع بإنتقاد ثقافة الإجترار والتبرير.

دراسات سيميائية أدبية لسانية (المغرب)

مرت هذه المجلة بمرحلتين: عندما صدرت أول مرة في خريف سنة ١٩٨٥ كانت تحمل عنوان: **دراسات أدبية ولسانية** وكانت هيئة التحرير تضم عدداً أوسع من الأساتذة الباحثين، وبعد صدور خمسة أعداد، استأنفت الصدور تحت عنوان: **دراسات سيميائية أدبية لسانية**وبإشراف د. محمد العمري ود. حميد الحمداني. وقد صدر لحد الآن أربعة أعداد في هذا الشكل الجديد، مع توقف دام سنة كاملة (طوال ١٩٨٩)، لأسباب مادية.

ربما كانت مجلة **دراسات سيميائية أدبية لسانية** أهم دورية متخصصة تتسم بالجدية والحرص على الشروط العلمية لما تنشره من أبحاث ومقالات. ويشتمل كل عدد من أعدادها على الأبواب التالية (العدد ٤، شتاء ١٩٩٠ نموذجاً):

(أ) «حوار: الشعر المغربي الحديث والمعاصر، وتاريخ وقضايا في ضوء الشهادة والنقد»، حوار مع الدكتور محمد السرغيني. وفي هذا الحوار إلقاء بعض الضوء على تاريخ الشعر المغربي وقضاياه النقدية.

(ب) «المنهج الموضوعاتي في النقد الأدبي: أصوله واتجاهاته» للدكتور حميد الحمداني، وهو يندرج في باب التعريف بالمناهج النقدية وبأسسها ومصطلحاتها.

(ج) دراستان عن بلاغة الشعر: الأولى كتبها د. محمد العمري عن: «تفاعل الصوت والدلالة في البنية الإيقاعية للشعر، المفصل الدلالي والتقطيع النظمي». والثانية للأستاذ محمد عبد الصمد الإجراوي: «عيوب القافية: قصور الأداة أو بلاغة التقنية؟».

(د) دراستان مترجمتان عن الرواية، الأولى بعنوان: «الصورة الأدبية، بعض الأسئلة المنهجية في الرواية» (لتسيفي أولمان)، ترجمها محمد أنقار ومحمد مشبال، والثانية بعنوان: «السيرة التاريخية كيف ينبغي أن تكتب اليوم»، كتبها جاك لوكوف وترجمها نزار التجديتي.

(هـ) مفاهيم نصوص: وفي هذا الباب تقدم المجلة نصوصاً نقدية قديمة (من التراث العربي) أو من النقد الأوروبي، متوخية من وراء ذلك إعادة تلك النصوص إلى منطقة الضوء والتأمل.

وفي هذا الصدد نجد ثلاثة نصوص:

ـ «الإشارة والسيما والدليل» للجاحظ.

ـ «الحروف الممتدة مع النغم» للحسن بن أحمد بن علي الكاتب.

ـ «النقد الروائي الفني (معالمه الأولى في إنجلترا)» لأدوين موير.

ترجع أهمية مجلة **دراسات سيميائية أدبية لسانية** إلى أن أهدافها تلتقي ببعض آفاق المستقبل التي يجب أن تتطلع إليها الدوريات الثقافية العربية. فهي من داخل مجال التخصص (النقد الأدبي والتحليل السميائي واللساني) تطرح مفهوماً منهجياً سليماً للأدب وطرائق نقده، إنها تحاول أن تردم الهوة القائمة عندنا في النقد المتمثلة في «الفصل» بين أدب حديث وأدب قديم، وإخضاع كل واحد منهما لنقد معين... وهذا الفصل له سلبيات كثيرة تتجلى في برامج تدريس الأدب بجامعاتنا... بدلاً من ذلك، تتبنى مجلة **دراسات سيميائية أدبية لسانية** منهجاً علمياً يمكن تطبيقه على النصوص القديمة والحديثة بقصد الكشف عن عناصر أدبيته وعن مكوناته الفنية وامتداداته الاجتماعية...

إن تجربة هذه المجلة جديرة بالتقدير والاعتبار، وحبذا لو تُوفَّر لها الإمكانات المادية ليمكن تعميم دراساتها على القراء في الوطن العربي، ليتم التفاعل والتنسيق بين الباحثين.

* * *

ومما يثير في التجربة المغربية في إطار الموضوع الذي يهمنا أن الساحة الثقافية عرفت عدة تجارب نجملهاعلى النحو التالي:

(أ) تميزت المرحلة الممتدة بين ١٩٥٦ و ١٩٧٠ بصدور مجلات ثقافية (حكومية ومستقلة) انبنى اختيارها على توجه سياسي وايديولوجي واضح وعملت في الساحة الثقافية على ضوء ذلك. نذكر من هذه المجلات **دعوى الحق** ١٩٥٩، **آفاق** ١٩٦٣، **أقلام** ١٩٦٤، **القصة والمسرح** ١٩٦٤، **أنفاس** ١٩٦٦، **الأهداف** ١٩٦٧... إلخ.

(ب) أما المرحلة الثانية فتمتد بصورة تقريبية بين ١٩٧٠ وأواسط الثمانينات. وقد تطور الاهتمام في هذه المرحلة بمتابعة التجربة السابقة على أساس اختيارات جديدة. ومن الأمور الدالة في هذا السياق أن معظم المجلات التي صدرت من قبل توقّفت عن الصدور لهذا السبب أو ذاك. فكان من الطبيعي، بحكم الجدلية الثقافية، أن تظهر مبادرات أخرى تراهن على الفعل الثقافي. ونسجل في هذه المرحلة ظهور: **أقلام** (في سلسلة جديدة) ١٩٧٢، **الثقافة الجديدة** ١٩٧٤، **الزمان المغربي** ١٩٧٩، **المشروع** ١٩٨٠، **الجسور** ١٩٨٠، **المقدمة** ١٩٨٢،

البديل ١٩٨٣ . . . إلخ .

(ج) أما المرحلة الثالثة فمتواصلة. وهي تتميز، بعد أن توقفت معظم المجلات المذكورة إما بقرار إداري أو بمحض الاختيار ببروز مجلات ذات توجه تخصصي في حقول معرفية مختلفة (التاريخ، الفلسفة، اللسانيات، المسرح . . . إلخ) دون أن يعني هذا غياب المجلة الثقافية العامة (المناظرة، أبعاد فكرية، الموقف . .) .

ومن الملاحظ أن مفهوم الثقافة العامة التي تعرضه المجلات المشار إليها في هذا الجرد الأولي يرتبط بمجموعة من المجلات المعرفية تتوزع بين الأدب والتاريخ والاجتماع واللغة، ويتم التعامل مع هذه الحقول من زاويتين :

- زاوية نشر الإنتاج الثقافي والمعرفي المحلي، والتركيز في هذا الإنتاج على مقاربة أوضاع الثقافة الوطنية .

- زاوية الانفتاح على الثقافة العربية من خلال ملامسة بعض قضاياها والتعرف على بعض جوانبها .

كما تخصص هذه المجلات بشكل ثابت وقار حيزاً أساسياً من تصورها للعمل الثقافي لمسألة الإبداع الأدبي من قصة وشعر ومسرح وسينما في بعض الأحيان، يستوي في ذلك أن يكون الإنتاج محلياً خاصاً أو عربياً عاماً .

ويصدر هذا النوع من المجلات، كما لاحظنا من قبل، عن وزارة متخصصة تهتم بشؤون الثقافة وتجتهد، حسب الاختبارات المحددة لدورها، للفعل فيها توجيهاً وبحثاً . على أن الجانب الهام في هذا كله هو أن الإمكانيات المادية المرصودة لهذا النوع من المجلات تحقق لها الاستمرار والتواصل والانتظام، بل وينعكس ذلك حتى على شكل طباعتها ونظام إخراجها ومساحة توزيعها ونشرها .

أما أهدافها الثقافية فتخضع لتوجيه مركزي مرتبط، في حقيقة الأمر، بآلية التوجيه العام الذي تتوخاه الدولة عن طريق أجهزتها الإيديولوجية، لواقع التطور في البلد المعني . والمجلة من هذه الزاوية هي إحدى القنوات الثقافية العاملة في سبيل ذلك .

غير أن هناك مجلات أخرى لا تتقيد بأي التزام رسمي وهي تصدر بالتالي عن مجموعات ثقافية أو اتحادات أدبية كما حددنا من قبل . ولا تختلف هذه المجلات في عنايتها بالعمل الثقافي عن المجلات الأخرى إلا في التوجه والبرنامج الذي تعرضه للفعل في الحياة الثقافية . فهي تهتم بنشر مختلف الدراسات الأدبية والتاريخية والاجتماعية واللغوية إلى جانب الإبداع الأدبي، لكنها، بحكم ما تفترضه لنشاطها من استقلالية في الطرح والتناول، تعرض ذلك كله من زاوية الصراع ضد الهيمنة الثقافية التي تبسطها الدولة على المجتمع . . .

ويمكن أن نفترض، من هذه الزاوية، وجود مستويات للصراع الثقافي تلعب فيها المجلات - بناء على التناقضات الكامنة أو الظاهرة - أدواراً متنوعة . وتقوم مستويات هذا الصراع على مفاهيم مركزية يمكن الإشارة إلى بعضها على نحو ما يلي :

١ - الهيمنة والاستقلال .

٢ - القديم والجديد .

٣ - الأصالة والمثاقفة .

٤ - الالتزام والحداثة .

٥ - الوحدة والاختلاف .

وهناك مستويات أخرى من الصراع تتداخل فيها اعتبارات سياسية وإيديولوجية وتجعل من المشهد الثقافي المغاربي مشهداً يمور بشتى الاجتهادات .

ثالثاً - آفاق المستقبل :

لا يتعلق الأمر، هنا، بتقديم تنبؤ حول ما ستكون عليه الدوريات الثقافية العربية في المستقبل، وإنما نقصد إلى تقديم رؤيتنا لدور هذه المجلات انطلاقاً من تصورنا للثقافة العربية ولإشكاليتها ولنوع الأسئلة التي تطرحها المجتمعات العربية بحثاً عن أفق للتغيير والتفكير في المستقبل . ومثل هذا الطرح يقتضي بالضرورة، أن نأخذ في الاعتبار الإنجازات الإيجابية لبعض الدوريات الثقافية العربية المغاربية - كما تجلى ذلك من التحليل الوارد في الجزء السابق - والتي تؤكد حيوية الدور الذي تلعبه المجلات الصادرة عن مجموعات ثقافية تنتمي إلى المجتمع المدني وتضطلع بمسؤوليتها في النقد والمكاشفة وإعادة النظر . ومثل هذا الاستخلاص يمكن أن يعمم على تجربة الدوريات الثقافية العربية حيث نجد أن لحظات الانعطاف والتحولات اللافتة للنظر في الثقافة العربية كثيراً ما اقترنت بظهور مجلّات شكّلت منبراً، لبلورة قيم جديدة أو مغايرة[٤] .

من هذا المنظور، فإن الصفحات التالية ستحاول أن تقدم تصورنا عن علاقة الدوريات بالثقافة، ثم تتطرق للدوريات وأسئلة الثقافة العربية إعتباراً من أن إشكالية المجلات هي جزء من إشكالية الثقافة العربية ذات الطروحات المتعددة أو المتعارضة في بعض الأحيان، وليس غرضنا هو الوصول إلى أجوبة . وإنما نتوخى أساساً إعادة صوغ الأسئلة ومحاولة وضعها في سياق أوسع .

١ - الدوريات والثقافة :

(أ) ما المقصود بالثقافة؟

مبرر هذا التساؤل - بالرغم من أننا لن نقدم إجابة حاسمة في الموضوع - هو توضيح بعض الالتباسات التي تحف بالجدل والحوار كلما تعلق الأمر بالثقافة . ويمكن أن نلخص مصدر الالتباس في نقطتين :

---

(٤) يمكن أن نذكر مثلاً، أسماء مجلات ظهرت في مصر مثل: المقتطف، الرسالة، أبوللو، الغد، الكاتب المصري . . . وفي لبنان: الآداب، شعر، مواقف . . . وفي المغرب: رسالة المغرب، مجلة للقصة والمسرح، أنفاس، الثقافة الجديدة . .

- إغفال الخلفيات الأبستمولوجية والفلسفية التي تستند إليها التعريفات المتعددة للثقافة: المفهوم الأنتربولوجي، المفهوم التاريخي، المفهوم السوسيولوجي، المفهوم الفلسفي إلخ...
- خلط مفهوم الثقافة بمفهوم المعرفة والعلم ومن ثم الجنوح إلى اعتبار الثقافة قيمة مطلقة قابلة في مجموع تمظهراتها وصيغها للنقل والتوريث وتعدية سياق إنتاجها...

تلافياً لهذا الالتباس، ولو جزئياً، نسوق مفهومنا للثقافة المتصلة بمجال دراستنا قبل أن نحدد دور المجلة الثقافية.

إن الثقافة، في نظرنا، هي مجموع القيم الأخلاقية والمعرفية والجماليانية (الأستيكية) التي تحدّد نوعية وجود الفرد داخل المجتمع وطريقة فهمه وانتمائه للتاريخ. إنها المولد لصيغة حياة داخل مجتمع ما، وبذلك فهي تشمل الأدب، والفن، والفكر، والمعمار، والموسيقى، والعلم، والطبخ، واللباس... وتشخص في الحياة العامة القيم المتحدرة من جهود وعطاءات المنتجين في الحقل الثقافي. وبهذا المعنى فإن الثقافة هي المجال الذي يحول الآني، العابر، إلى إنتاج له ديمومة بها يتعدى سياقه ليقيم حواراً مع ثقافات أخرى. وارتباط كل ثقافة بشروط إنتاج معينة، وبعلائق سياسية واجتماعية وتاريخية، هو ما يجعل الثقافة متغيرة خاضعة لصيرورة التاريخ وتفاعل الحضارات. إن الثقافة مهما ارتبطت بالخصائص العامة لشعب من الشعوب فهي حصيلة جدلية داخلية وخارجية وجماع رؤيا متصارعة أو متكاملة (ثقافة عالية/ ثقافة شعبية، ثقافة سائدة، ثقافة مركزية/ ثقافة هامشية...).

وقد لا تهمنا هذه التفاصيل والتفريعات، هنا، بقدر ما يهمنا الإلحاح على أن الثقافة العربية، مثل بقية الثقافات الأخرى - مطالبة بأن تعي مسألتين جوهريتين تتمثلان في تحليل المجتمع والنهضة من زاويتين متكاملتين:

(أ) من الداخل: أي محاولة تجلية الصورة التي يكونها المجتمع (الأمة العربية) عن نفسه وكيف يحدد دوره الثقافي والحضاري؟

(ب) من الخارج: أي التفكير في الأنساق الضاغطة على المستوى العالمي والتي تكمن وراء تغيير جزء هام من البنيات والقيم (مثل: تحولات الاقتصاد والتكنولوجيا والإيديولوجيات والتحالفات العالمية والإنجازات العلمية...)

من هذا المنظور، نقول بأن الثقافة - رغم ارتباطها بالهوية وتشخيصها للخصوصية - فأنها تظل سجلاً للصيرورة وملتقى للعلامات والسلوكات والمواقف الكاشفة لوعي الإنسان وإبداعيته وحضوره داخل عصره.

(ب) ما هو دور المجلة الثقافية؟

تندرج المجلة أو الدورية ضمن وسائل التثقيف المكتوبة والتي لا تحقق غايتها إلا من خلال القراءة ومشاركة القراء. وهي بذلك إحدى صيغ إنتاج الثقافة ونشرها، مثلها مثل الكتاب، لكنها تتميز بطابعها الجماعي سواء على مستوى الإنتاج (تعدد المشاركين وأحياناً التخصصات) أو على مستوى التلقي (غالباً ما تربط مجلة ما بفئة أساسية من القراء يسندونها وقد يؤثرون في اتجاهها...)، كما تتميز بانتظامها في الصدور وتفاعلها - بدرجة ما - مع الأحداث الثقافية. ومنذ التوسع الكبير والمذهل الذي عرفته وسائل التثقيف السمعية والبصرية (وخاصة السينما والفيديو والإذاعة) فإن مسألة التثقيف المرتبط بالقراءة أصبحت موضع نقاش، وأصبح الكثيرون يميلون إلى القول بانحسار القراءة وانصراف الناس عنها في المستقبل، إيثاراً للسهولة. لا ندخل في تفاصيل هذا الجدال، لأننا نعتقد بأن القراءة ستظل وسيلة أساسية لممارسة الحرية والحوار مع فكر الآخرين على إختلاف عصورهم وبلدانهم غير أن منافسة وسائل التثقيف الأخرى للكتاب والمجلة لا يمكن الاستهانة بها وتستلزم تطوير صناعة الكتاب والمجلة باستمرار...

وأكثر ما يبرز دور المجلة الثقافية في مجال ممارسة الديمقراطية الثقافية، باعتبار أن صيغ الإنتاج والإبداع المختلفة هي قبل كل شيء إسهام بالملموس في إنتاج الثقافة وإظهار سيرورة التفاعل معها. ذلك أنه لا يكفي توفير دمقرطة الثقافة من خلال تأمين التعليم والكتاب وجميع وسائل التثقيف، وإنما يجب الحرص على توفير شروط الديمقراطية الثقافية التي تتيح للموظفين الإسهام في إنتاج الثقافة عبر كتاباتهم ومناقشاتهم وردود فعلهم، عبر طريقة تفاعلهم مع قيم ثقافية دون أخرى. بذلك تكون الديمقراطية الثقافية خروجاً من التلقي السلبي ومن «تخزين» المعلومات والمعارف إلى مستوى محاورة مختلف مظاهر الثقافة وإنتاجاتها على ضوء اهتمامات وهموم الفرد والمجتمع.

والمجلة الثقافية - إلى جانب وسائل أخرى - في طليعة الممارسات التي تتيح للدارس الوقوف على مضمون ثقافة ما وهي في حالة فعل، أي من خلال الأجوبة التي تقدمها كتابات المجلات ومناقشاتها على مختلف أسئلة المجتمع وعلى إشكالياته الثقافية. المجلة، بهذا المنظور، مرصد للتأريخ التفصيلي لسيرورة تكوّن الوعي الثقافي وتطوره، ليس فقط استناداً إلى ما يكتبه المثقفون والمبدعون والباحثون. وإنما أيضاً من خلال ردود فعل القراء ومكانة كل مجلة داخل الحقل الثقافي. وهذا هو ما يفسر الأهمية التي يوليها مؤرخو الفكر والثقافة للمجلات والدوريات، لأنها غالباً ما تكون مجالاً للإرهاص والمخاض، وغالباً ما تنشر فيها مقالات أو دراسات أو حوارات تلتقط بعض القضايا والتحولات وهي قيد التشكيل والتبلور. فالمجلة أنسب للتعبير عن قضايا وتصورات ملتصقة بجدلية التفاعلات المنبثة عن تحولات ممكنة...

من جانب آخر، تضطلع المجلة الثقافية بنشر وإشاعة نتائج الأبحاث المتخصصة في شكل ولغة مبسطين حتى لا تظل سجينة أروقة الجامعات والمختبرات. وتتضح أهمية هذا الدور للمجلة عندما نستحضر كون قيمة الجديد في مجال الثقافة لا تمثل في مدى الابتكار

والجدة وإنما في مدى تأثيره على أوسع نطاق حتى لا تظل الثقافة المستنيرة المجددة حكراً على فئات محدودة تشكل جزراً منفصلة داخل المجتمع. ولعل السياق الراهن للتطورات السياسية والإيديولوجية والثقافية في العالم، يؤكد بقوة أن التغيير الحقيقي للإنسان إنما هو التغيير الذي يتم عبر تحول الوعي الذاتي للأفراد، عن طريق الاقتناع لا بواسطة «نخبة» تفرض وصايتها على المجتمع. ومن ثم فإن الدوريات الثقافية تستطيع أن تسهم بفعالية في تنظيم الحوار بين مختلف القوى الثقافية والمجتمعية تدعيماً للديمقراطية الثقافية، كما أنها قادرة على أن تكون منبراً لطرح الأسئلة الجريئة وإعادة النظر في اليقينيات التي فقدت نسغها ونبضها من جراء التحولات السريعة للعلم والتكنولوجيا والعلائق البشرية.

على ضوء الملاحظات السالفة، يمكن القول بأن علاقات الدوريات والمجلات بالثقافة هي علاقة جدلية، فالثقافة تتكون من الموروث والمستجد، من الشفوي والمكتوب، من المعيش والمبدع... والمجلة هي من الوسائط الأساسية لنشر الثقافة ومساءلتها، تسهم في إنتاجها كما تسهم في نقدها وتجديدها، إنها أداة تشخيص الجزء الفاعل والحيوي من الثقافة عبر تفاعل المثقفين وتنظيم الحوار المدعم للديمقراطية الثقافية. لنقل إن المجلّة هي مكان صوغ السؤال الثقافي بامتياز، ما دام السؤال هو الشرط الأولي اللازم لقيام الفعل الثقافي وتشييد دلالته وتطلعاته المستقبلية.. فما هي أسئلة الثقافة التي يمكن للدوريات الثقافية العربية أن تحتضنها من أجل بلورتها والبحث عن أجوبة ملائمة لها؟

٢ ـ الدوريات وأسئلة الثقافة العربية:

ان الحديث عن آفاق مستقبل الدوريات الثقافية هو بالضرورة حديث عن إشكالية الثقافة العربية، ما دام قد اتضح لنا من خلال تحليلنا لتجربة المجلات المغربية أن التصادي والتفاعل كانا قائمين باستمرار، كما أن بروز بعض المجلات هو راجع بالأساس إلى التصاقها بأسئلة الثقافة الجوهرية في تلك الأقطار... وإذا كنا لا نستطيع هنا، تناول الإشكالية بتفصيل فإننا سنكتفي بإيراد بعض العناصر التي تسعفنا على استحضار إطارها العام وأسئلتها المركزية...

على امتداد قرن من الزمان، والثقافة العربية تبدأ أو تعيد «اختيارات» لتحقيق «النهضة»، غير أن تلك الاختيارات والمحاولات آلت إلى التعثر، وأفضت إلى تكرار الخطابات التبشيرية التلفيقية، المفتقرة إلى أسس نظرية ذات أهداف واضحة.. ومن ثم أصبحت حركات «النهضة» العربية الحديثة عبارة عن سلسلة من الدوائر المتجاورة، المتقاطعة، لعجز عن إقامة حوار يفضي إلى خلاصة تركيبية تستحصد الجهود وتحقق التراكم.. كثرت الدوائر والشعارات وابتعدت عن أسئلة الثقافة المنبثقة من الحياة، فكان الانفصام الذي يؤدي إلى تجميد الفعل و«سلطنة» الشقشقة الثقافوية اللفظية المشيدة للثنائيات والدوائر المستعصية: الهوية والتحديث، الأصالة والمعاصرة، الفكر الديني والفكر العلماني، الليبرالية والاشتراكية...

وما يمكن أن نلاحظه هو أن معظم المجلات الثقافية العربية قد ظلت مستوحية لتلك الطروحات التجزيئية الإيديولوجية، غافلة عن التحولات الحديثة في الواقع القومي وفي الساحة العالمية. إن الثقافة، بشكل ما، قد فرطت في العلاقة الانتقادية، المتوترة، التي يجب أن تحافظ عليها باستمرار بينها وبين السياسة.. هكذا فإن السياسي العربي ـ بأفقه المحدود، ومثله المستوردة ـ عوّض عن فشله بسلطوية مطلقة، بينما ظلت الثقافة، عندنا، مشدودة إلى النقد الإيديولوجي (مقابلة إيديولوجيا بأخرى) بعيدة عمّا كانت تفرضه أسئلة المجتمع، أي الاضطلاع بنقد الإيديولوجية ذاتها من خلال مقارنة ممارسات السلطة وممثلي الإيديولوجية بمتطلبات الواقع بعيداً عن أقنعة الخطابات وغلائل الشعارات... وفي مثل هذا الجو المحموم باللفظية والخطب وصكوك الاتهامات ومرسومات الوصايا.. يضيع صوت المواطن العربي وتُغَيّب ذاته، ويصبح يعيش حياته بالوكالة، متوارياً خلف السلبية والانتظارية، مستهلكاً لما يقدم له، مصفقاً للمتنافسين على ودّه... ويمكن أن نلخص هذه الوضعية ـ رغم ما في ذلك من اختزال ـ بأنها وضعية تغيب الذات الفاعلة، الواعية، لصالح بنيات كليانية سياسية كانت أم لاهوتية. وفي مثل هذه الحال يتعطل دور الثقافة بوصفها محرك جدلية التواصل والتغيير بين المعيش والمعبر عنه فنياً وفكرياً.. وشيئاً فشيئاً يستسلم المثقفون والثقافة لمنطق تلك البنيات اللاغية لدور الفرد الفاعل المدافع عن حريته وحرية الآخرين..

في نفس الاتجاه، يمكن أن نشير إلى أن الإشكالية الثقافية على المستوى العالمي تتجه، راهناً، إلى ضرورة إعادة الاعتبار للذات (SUJET) بعد أن أكدت الدراسات الأساسية في العلوم الإنسانية أن الفرد أصبح مسيراً من خلال بنيات تلغي ذاته وإرادته: بنية اللاوعي حسب فرويد، وبنية طريقة الإنتاج والإيديولوجيا حسب ماركس، وبنية اللغة حسب سوسير وجاكبسون، وبنية القرابة حسب ليڤي ستراوس... إلخ. فضلاً عن ذلك، فإن عوامل كثيرة ـ داخل نظام الحياة الحديثة ـ تضافرت (وفي طليعتها أجهزة الثقافة الجماهيرية وصناعتها) لتنتزع من الفرد قوته الإرادية وتحيله إلى تابع لبنية غُفْل، غير مرئية تحقنه بثقافتها وقيمها المعلبة...

إذن، عندما نريد التفكير في مجلة المستقبل فإن هذا التفكير لا يمكن أن يبتعد عن دائرة الأسئلة التي تطرحها إشكالية الثقافة العربية وفي طليعتها ـ حسب رأينا ـ ضرورة استعادة الفرد العربي (بوصفه ذاتاً فاعلةً، واعية) لإمكاناته في التعبير والاختيار والتمرد على البنيات المشخصة لسلطة كليانية.. بعبارة أخرى، فان أفق المستقبل بالنسبة للدوريات الثقافية العربية يرتبط ـ في نظرنا ـ بالحرص على إعادة الاعتبار والأولوية لذات الفرد، ومن خلالها للذات العربية، لتفصح عن حقيقة تفكيرها، وعن المكبوت فيها،

ولتفجر إبداعيّتها وتمارس حقها في التحليل والنقد وإعادة التأويل.

لكن كيف نربط بين هذا الأفق النظري وبين الممارسة في المستقبل؟

أولاً: لا مناص من أن تهتم الدوريات الثقافية بتحليل ومناقشة موضوع وسائل التثقيف الجماهيري بترابط مع مجتمع الجماهير الذي نرتاده بدورنا: كيف يمكن تفعيلها باتجاه القضايا الثقافية الحيوية وتدعيم الديمقراطية الثقافية؟ ما هي العلائق الإيجابية الممكنة بين هذه الوسائل وبين الطلائع الثقافية والفنية؟

ثانياً: لا تعود أهمية مناقشة موضوع مستقبل الدوريات الثقافية إلى الخروج بتوصيات في الموضوع، بل إلى إدراج هذا الموضوع ضمن القضايا الأساسية التي تستدعي تحسيس الجمهور القارىء وربط اهتمام منتجي الثقافة بالتفكير في وسائل إنتاجها وفي وضعها الاعتباري داخل الحقل الثقافي.، ومن هذا المنظور، فإن المطالبة بمساعدة الدوريات الثقافية من لدن الدولة (بوصفها ممثلة للأمة) هو، في العمق، تدعيم لمبدأ الديمقراطية الثقافية المرتبطة بإسهامات المجتمع المدني في إنتاج الثقافة واستبطان قيمها وتشخيصها على أرض الواقع. لذلك فإن تشجيع الدولة للمجلات الثقافية بدون شروط ضروري في مرحلتنا الراهنة من أجل حماية حرية التعبير ودعم الثقافة الفاعلة.

ثالثاً: بما أن تاريخ المجلات العربية يؤكد ثقل ورجحان الدور الذي تلعبه المجلات الصادرة عن مجموعات تفكر بصوت عال وتتوفر على رؤية ثقافية وإضافات إبداعية وفكرية، فإن على مجلة المستقبل أن تعطي الأسبقية لهذا المقياس حتى لا تظل المجلة مجرد «معرض» لثقافة المعلومات والنظريات المنفصلة عن أسئلة ثقافتها. وإذا كنا نسجل أهمية تجربة بعض الدوريات الثقافية المتخصصة في المغرب العربي، فإن ذلك لا يمنع من القول بأن التخصص لا يحول دون الانفتاح على المجلات الثقافية الأخرى بحثاً عن حوارية مثمرة.

رابعاً: منذ مطلع هذا القرن، سعت الثقافة العربية ومجلاتها إلى الانفتاح على الثقافات الأجنبية. وبدون الدخول في التفاصيل، فإن عملية المثاقفة ـ ومن بين وسائلها المجلات ـ انطوت على كثير من السلبيات رغم إيجابيتها. وليس أقل تلك السلبيات إضفاء المطلقية على ثقافات «الآخر» وكأنها ثقافة «مكتملة» مُبَنْينة على حقائق ثابتة، مما أدى إلى تبويئها مكانة المرجعية الوثوقة لدى معظم الباحثين والقراء العرب. ما هو مطلوب الآن ـ وقد بدأت بوادره في بعض الدوريات ـ هو تقديم الثقافات الأجنبية من منظور تنسيبي يوضح سياقاتها وتبدل إشكاليتها ومحدودية قيمتها...

خامساً: ان المجلة الثقافية المستقبلية ـ كما نتصورها ـ هي أداة صوغ أسئلة، ومنبر لبلورة رؤية للعالم وتحديد مهام المستقبل. ومن هذه الزاوية، لا يكون موضوعها الأساسي هو المعرفة أو الحقيقة بإطلاق، بل صياغة أحكام تقييمية، وإتخاذ مواقف والإيحاء بقرارات تخص مستقبل المجتمع. وفي هذا المستوى تنتصب العلاقة بين الثقافة والسياسة بالمعنى العميق: أي مواجهة مشكلات المجتمع المشتركة في راهنيتها وصيرورتها. والمجلة الثقافية ـ حسب التصور الذي أشرنا إليه ـ مهيأة لأن تكون لحمة هذه العلاقة النقدية بين السياسة والثقافة.

صدر حديثاً

تزوّج دورونتين بشاب من بلاد نائية، عكس الأعراف ورغم إرادة الأهل، باستثناء أخيها قسطنطين الذي أقسم بشرفه «البيا» أن يعيد دورونتين إلى والدتها كلّما حنّت إليها. ويشاء القدر أن يُقتل أخوة دورونتين التسعة إثر معركة خاضوها ضد الغزاة. ويطوي الردى قسطنطين صاحب القسم.

وبعد ثلاث سنوات على زفاف دورونتين تعود ذات ليلة إلى بيت أهلها برفقة فارس قالت إنه أخوها قسطنطين!

أيكون الفارس الذي أعادها هو قسطنطين نفسه المزحزح قبره والقائم إلى قسمه، أم تراه زنديقاً يقصد زرع الشقاق والبلبلة في صفوف المؤمنين؟

«من أعاد دورونتين» هي بهذا المعنى رواية الأسئلة، ومغزل الروايات التي تُحبك بخيط سرّي واحد هو الأسطورة.